الأستاذ ابراهيم فقيه

لبنان إلى أين؟

مئة عام وعام مرت على تأسيس الكيان اللبناني بإعلان الحاكم العسكري الفرنسي الجنرال غورو دولة لبنان الكبير بحدوده الجغرافية المتعارف عليها اليوم والمعترف بها دولياً، مضى منها عقدان ونيف في ظل حكم الانتداب الفرنسي الذي كان يعين النواب والوزراء وكذلك الرؤساء واقرار القوانين وتعديل الدستور إلى أن حصل لبنان على استقلاله عام ١٩٤٣ عبر ما عرف بالميثاق الوطني، ونتيجة لاتفاق بين القوى السياسية وخاصة الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح ووزعت المراكز الأولى في السلطة ما بين الطوائف على أن لا يكون لبنان ممرا ولا مقرا لقوى خارجية. بعد أن تخلى الراغبون في الوحدة مع سوريا الملك فيصل ابن الشريف حسين قائد الثورة السورية آنذاك، كما تخلوا عن مطلبهم أولئك الراغبون في البقاء تحت الانتداب الفرنسي. لكن هذا الميثاق لم يستطع أن يصمد أكثر من خمسة عشر عام، حيث غامر رئيس الجمهورية كميل شمعون بمصير البلاد لزج لبنان في حلف بغداد ضمن المشروع البريطاني (مشروع نوري السعيد) فانتفض العروبيون والقوى التقدمية ضد كميل شمعون عام ١٩٥٨ الذي استنجد بالمارنز الأميركي الذي أنزل آليته العسكرية على شواطئ بيروت، وانتهت الحرب بلا غالب ولا مغلوب. والحقيقة انتصار المقاومة الشعبية وانتخاب قائد الجيش الجنرال فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية وكان عهده مميزاً لناحية احترام الدستور وتنظيم مؤسسات الدولة أو لنقول أن الرئيس شهاب بفضل حكمته ووطنيته وعصاميته واحترامه لقسمه بشرفه العسكري وضع لبنان على سكة بناء الدولة عبر تأسيسه لمجلس الخدمة المدنية والتفتيش المركزي وديوان المحاسبة والضمان الاجتماعي ومجلس شورى الدولة والمشروع الاخضر والبنك المركزي وغيرها من المشاريع والمؤسسات التي لا زلنا نتمسك بأطلالها حتى يبقى شيئ اسمه دولة. بعدما حولت الطبقة السياسية الحاكمة مع المنظومة المسيطرة على البلاد اقتصاديا وماليا وسياسيا وطائفيا وعلى

كافة المجالات حولت لبنان إلى مزرعة كبيرة تتفرع منها مزارع على أحجام أصحابها. وبعد خمسة عشر عام ونيف ثانية بدأت رياح الحرب الأهلية تهب على لبنان وهذه المرة من النافذة الفلسطينية وانعكاس اتفاق القاهرة الموقع عام ١٩٦٩ برعاية مصرية بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات وبعد أن استفحل دور المكتب الثاني الذي لعب خارج سربه في ظل ولاية الرئيس شارل الحلو وفي ظل التأييد الإسلامي والعروبي للمقاومة الفلسطينية وانقسام اللبنانيين هذه المرة بين مناهض وبين مؤيد للعمل الفدائي الفلسطيني لاسترداد الفلسطينين حقوقهم وأراضيهم التي احتلها العدو الاسرائيلي بدعم غربي وخاصة بريطاني عام ١٩٤٨ (القسم الفلسطيني المحاذي للبحر المتوسط) وبدعم أميركي مطلق عام ١٩٦٧ حيث أكمل العدو احتلاله لكامل الأراضي الفلسطينية أي الضفة الغربية وغزة وكذلك أراضي سيناء المصرية والجولان السوري، بعد أن خسرت مصر وسوريا والأردن الحرب في ما عرف بحرب الأيام الستة حيث كان قطاع غزة تحت الوصاية المصرية كما كانت الضفة الغربية لفلسطين تحت الوصاية الأردنية وضاعت مدينة القدس بالرغم مما ترمز إليه اسلاميا ومسيحيا وانسانيا.

وكانت العصابات الصهيونية التي هيأ لها الانتداب البريطاني الدعم الكامل للسيطرة عبر المجازر الوحشية العديدة (١٩٤٨) قد حظيت بدعم الامبريالية الاميركية لتدعم إسرائيل في حربها الثانية (١٩٦٧) إلى أقصى الحدود، وما بين الحربين قامت اسرائيل ١٩٥٦ بعدوانها على مصر الناصرية مع بريطانيا وفرنسا في ما عرف بالعدوان الثلاثي. ولم تنته عدوانية الصهاينة بل استمروا بالاعتداء على لبنان الذي كان لهم فيه مطامع لم تنته حتى اليوم ومجزرة حولا عام ١٩٤٨ والاغتيالات المتعددة والاعتداءات المتكررة على الجنوب اللبناني لا زلنا نحفظ تاريخها وأسماءها جيدا ولن ننسى في الخمسينات والستينات وسبعينات القرن الماضي ناهيك عن إجتياح عام ١٩٧٨ لجنوب الليطاني واحتلال العاصمة بيروت عام ١٩٨٢ وثم عدواني حربي ١٩٩٣ و ١٩٩٦.

وكان عام ١٩٧٣ قد بدأت تلوح في الافق اللبناني بوادر حرب أهلية تجلت مظاهرها في الاستعراضات العسكرية لحزب الكتائب اليميني وتسليحه التي ترافقت مع الاعتداءات

الاسرائيلية المتكررة سواء على مطار بيروت الدولي واحراق طائرات الميدل ايست او في الهجوم المريب للعصابات الصهيونية على قلب العاصمة واغتيال القادة الفلسطينيين في منطقة فردان. والاعتداءات المتكررة على قرى الجنوب ومدنه واغتيال العديد من قادة المقاومة اللبنانية تلا ذلك اغتيال الشهيد النائب معروف سعد وهو يقود مظاهرة تأييد لصيادي الأسماك في صيدا شهر شباط ١٩٧٥ ثم بوسطة عين الرمانة وقتل ركابها الفلسطينيين من قبل حزب الكتائب في ١٣ نيسان، وبدأت الحرب بساعاتها وأيامها ثم اسابيعها وجولاتها الأولى والثانية... وانتهت حرب السنتين ولم تتوقف الحرب بل استمرت بشكل أوسع وأشرس لخمسة عشر عاماً كلفت اللبنانيين مئات آلاف القتلى والجرحى والمعاقين والأرامل واليتامى والمهاجرين الهاربين في كل الإتجاهات وهروب أينما كان وكيفما كان، حرب لم تعرف الحروب العالمية بشاعتها وإجرامها من قتل على الهوية وقنص غير مركز.

واختلطت قذائف الداخل بقذائف العدو الاسرائيلي حيث للملاجئ حكايات ربما لا تتسع لها القصص، مقاتلون لا يعرفون الرحمة بلا رادع أو رقيب أو حسيب ولا وجود لما يسمى دولة أو مؤسسات أمنية قادرة على تطبيق القانون وفرض النظام العام وحماية المجتمع. ولم تتوقف الحرب التي سميت أهلية طيلة خمسة عشر عاماً بالرغم من المساعي العربية والدولية والمؤتمرات والمبعوثين والوسطاء من فيليب حبيب إلى الأخضر الابراهيمي إلى اسماء عديدة ما انزل الله بها من سلطان (أهمها مشروع هنري كيسنجر التقسيمي والتفتيتي للمنطقة لإقامة دويلات طائفية ومذهبية لتبقى إسرائيل هي الأقوى في المنطقة) وبالرغم من الاحتلالين والاجتياحين الاسرائيلين عام ١٩٧٨ و ١٩٨٢ وعدوان اسرائيلي مستمر على لبنان وبالرغم من المشروع الوطني للحل الذي طرحته الحركة الوطنية أي اليسار بزعامة كمال جنبلاط ومعه محسن ابراهيم وجورج حاوي وانعام رعد وباقي القوى الوطنية والتقدمية.

ومن نتائج هذه الحرب المشؤومة كان اغتيال عدد من قادة البلاد وسياسييها النافذين من المفتي حسن خالد والمعلم كمال جنبلاط ومجزرة الصفراء ومقتل داني شمعون وعائلته وتصفية طوني فرنجية وعائلته بمجزرة اهدن التي ارتكبتها القوات اللبنانية كغيرها من

المجازر، وتم إخفاء الامام السيد موسى الصدر في ليبيا وغادر ريمون إده إلى فرنسا بعد تهديدات عديدة، كما تم اغتيال بشير الجميل بعد انتخابه رئيسا للجمهورية على الدبابة الاسرائيلية، فانتهز الفرصة صائب سلام ليطرح اسم أخيه أمين الجميل بمباركة من رئيس مجلس النواب آنذاك كامل الأسعد وحاول أمين أن يحكم البلاد بحزب الكتائب، الذي ارتكب مجازر صبرا وشاتيلا أثناء الاحتلال الاسرائيلي ودخول شارون وزير دفاع العدو إلى بيروت، ثم كانت حرب الجبل والتهجير المتبادل، وبعدها انتفاضة الرابع عشر من شباط ١٩٨٤ من قبل نبيه بري رئيس حركة أمل الذي تحالف مع رئيس تقدم الحلف الاشتراكي وليد جنبلاط اللذين اسقطا اتفاق السابع عشر من أيار بمساندة القوى الوطنية واليسارية والتقدمية.

وبنهاية عهد امين الجميل كلف الجنرال ميشال عون قائد الجيش رئيسا للحكومة العسكرية فخاض عون صراعا مزدوجا سواء في المنطقة الشرقية مع سمير جعجع قائد القوات اللبنانية او في الجبل ضد وليد جنبلاط والحزب التقدمي وضد الجيش السوري الذي استمر في لبنان منذ بداية الحرب حيث جاء باسم قوات الردع العربية، ولم تنته الحرب الا بعد ان اجتمع النواب اللبنانيون في الطائف وعقدوا مؤتمرا برعاية سعودية سورية ومباركة عربية واوروبية واميركية، فكان اتفاق الطائف او ما سمي بوثيقة الوفاق الوطني (الدستور)، التي رفضها الجنرال عون محتلاً للقصر الجمهوري حتى اجبرته الطائرات السورية بعد قصف القصر على الذهاب إلى السفارة الفرنسية وبالتالي إجباره على مغادرة لبنان إلى فرنسا التي أقام فيها لغاية عام ٢٠٠٥ حيث عاد إلى بيروت فوجد غريمه سمير جعجع قد دخل السجن بعد تفجير الكنيسة في عهد الياس الهراوي الذي انتخب رئيسا للجمهورية بعد اغتيال رينيه معوض أول رئيس بعد الحرب. وفي أيام حكومة رفيق الحريري الذي دخل جنة الحكم اللبناني مطلع التسعينات من القرن الماضي بعد إسقاط حكومة عمر كرامي في الشارع عبر المظاهرات والحرائق وارتفاع سعر الدولار من ثلاث ليرات إلى ثلاثة الاف ليرة لبنانية، حيث بدأ حكم ما يسمى بالترويكه (بري- حريري- جنبلاط) دون نسيان حصة الهراوي.

وبدأت مرحلة الحريرية السياسة وتوزعت الصناديق ذات المردود المادي على قيادات تلك المرحلة فبقي مجلس الجنوب من حصة نبيه بري وصندوق المهجرين من حصة وليد جنبلاط

ومجلس الانماء والاعمار من حصة رفيق الحريري ونال سمير جعجع عفوا عن كل ارتكابات الحرب وأقام الحريري شركة سوليدير وغيرها من شركات المنفعة في الشراكة مع المنظومة المؤلفة من قادة المليشيات والقيادات المستحدثة وبعض الإقطاع السياسي والاقتصادي. وتم بناء وسط البلد وشعر اللبنانيون لفترة كأنهم يعيشون في بلد يشبه بلاد العالم الراقي وزادت الطبقة السياسية مقاعد مجلس النواب إلى ١٢٨ ومناصفة وتشكلت الحكومات الثلاثينية لإرضاء الجميع وأدخل مسلحو المليشيات في مؤسسات السلطة الأمنية والإدارية.

وازداد الفساد فسادا والطمع جشعا والسرقة المنظمة وبدأ عداد الدين على الدولة يزداد في اضطراد، وكان انتصار عام ٢٠٠٠ على العدو الاسرائيلي واجباره على الانسحاب من الجنوب يضيء الصورة المعتمة من تلك المرحلة، إلى أن كان شباط ٢٠٠٥ حيث تم تفجير موكب رفيق الحريري الذي أعاد انقسام اللبنانيين وهذه المرة بين ما سمي ١٤ آذار المناهض و ٨ آذار المؤيد لسوريا، بينما استندت قيادات ١٤ اذار على القرار ١٥٠٩ للضغط من أجل انسحاب الجيش السوري من كامل الاراضي اللبنانية. فعاد الجنرال عون من منفاه في باريس كذلك عاد امين جميل وبدأت سياسة المحاور تلقي بثقلها على لبنان، إلى أن كان اتفاق الدوحة بين كل القوى السياسية الحاكمة وذلك بعد احداث ايار ٢٠٠٨ التي كادت أن توقع حربا بين اللبنانيين. وجيىء بقائد الجيش العماد ميشال سليمان رئيسا للجمهورية. وكان حديث الساعة بين اللبنانيين يدور حول المحكمة الدولية في مقتل الحريري بين مؤيد لها بالكامل ورافض لها بالمطلق. وعاش اللبنانيون قبلها كذبة كبيرة كعادتهم بل مجموعة اكاذيب منها البحبوحة الشكلية على تثبيت سعر صرف الدولار على قيمة ١٥٠٠ ليرة لبنانية والاستفادة من تحويلات المغتربين ومن القروض الدولية وباريس ١ و باريس ٢ وهدر مليارات الدولارات، وبدأ التراجع الاقتصادي والمالي يزداد تباعاً إلى أن كان السابع عشر من تشرين اول عام ٢٠١٩ حيث رفع الغطاء وبانت الحقيقة المرة فلم تنقض أيام وشهور حتى اتضحت الصورة لكل الناس: فساد لم تعرف الدنيا والتاريخ مثيلا له، طبقة سياسية ومنظومة حاكمة لم يعرف العالم أشرس وادنى وادهى منها وضاعت اموال الناس ومستقبلهم واحلامهم ومستقبل الاجيال كافة إلى ان اكتملت الصورة المأساوية بانفجار مرفأ بيروت في الرابع من

آب عام ٢٠٢٠، نتيجة الإهمال والاستهتار والمنفعة الخاصة لدى المسؤولين سواء كان على المستوى السياسي او على المستوى الإداري حتى عمَّ الفساد الأكثرية الساحقة من الذين يتولون الشأن العام دون حسيب أو رقيب، واستمرت المنظومة في فسادها ولا زالت تحكم كأنها ايام هتلر وموسوليني والسلطان العثماني، والدولار تخطى العشرين الف ليرة وهو على ارتفاع مستمر والليرة في هبوط سريع مأساوي، والناس إلى جوع وفقر مدقع، واليوم حال الناس يسأل إلى أين؟ وماذا بعد كل هذا الواقع المزري؟ وكيف العيش في ظلام دامس وظلم جائر؟

لبنان الزمن الجميل ولبنان سويسرا الشرق انتهى إلى غير رجعة ولبنان العروبة والناصرية والقضية واليسار والحرية والديمقراطية ذهب ولن يعود. ولبنان حرية الفكر والرأي والمعتقد ودار الفكر ودور النشر ما عاد يشبهنا للأسف. حتى لبنان الطبيعة التي تغنى بها الشعراء ولبنان الجمال الذي غنته فيروز وأبدع بإظهاره الرحابنة ما عاد موجودا. وفترة العز التي عاشها اللبنانيون مع مسرحيات واصوات العمالقة من اهل الفن صارت من الذكرى المؤلمة، ومسرح المدينة لم تتسع له المدينة، وجدران مقاهي شارع الحمراء تفتقد لروادها من المثقفين والمناضلين وأهل القلم.

سماء لبنان ما عادت صافية وبحره لم يعد بحر العيد، وقراه فقدت رونقها وبهاءها ومدنه لفتها العتمة القاتمة بعد ان هجرتها الانوار الدافئة، لبنان اليوم ضاعت فيه براءة الاطفال، وروعة الاولاد وهمة الشباب وحكمة العقلاء حتى جمال المرأة في بلدي ما عاد من صنع الله. مدارسنا وجامعاتنا جسد بلا روح، حتى الصروح التربوية العريقة افتقدت للتربية ومعالم العلم والفكر تبكي عل العلم وتتحسر على التعليم، اهل الفضيلة والشرف والنخوة، واهل الايثار والتضحية باتوا غرباء عن المجتمع، واهل الفداء ما عاد مرغوبا فيهم في الوطن العربي، لولا قلة نذرت نفسها للحق ولا زالت يدها على الزناد في مواجهة عدو صهيوني غاشم قادرة على ردع العدو عن القيام باعتداءات يعمل ألف حساب قبل التفكير بها.

ولولا قلة لا زالت تمتلك ضمائر حية تؤلمها وتوجعها ليل نهار دون القدرة على تحقيق آمالها وأحلامها في بناء مجتمع راق تحكمه العدالة الانسانية، المؤمنون في بلدي رفضتهم دور

العبادة، لأنها لم تبن على الايمان ولا من أجله وأكثر رواده يدعون الإيمان وهم ليسوا مؤمنين ويدعون الصدق وهم ليسوا بصادقين، والورود عندنا ما عاد عطرها فواحا ولم تعد فوحة رسائل العشاق، حتى الطيور والعصافير هجرت وغادرتنا لأننا اتقنا سماع ازيز الرصاص وفضلناه على زقزقة العصافير وتغريد البلابل.

وبراءة الاطفال ما عادت تعنينا ولا حقوق الطفل تهمنا، حتى حقوق المرأة أضحت خطابات كالسلع تشترى وتباع، ومستقبل الشباب وحقوق الانسان والوحدة الوطنية والعيش المشترك والتنمية المستدامة اضحت عناوين لبضائع نبيعها على ابواب الانتخابات سواء كانت نيابية او بلدية حتى الاجتماعية منها والثقافية. كما أن الديانات السماوية غادرت سماءنا من جور الطائفية ولؤم الطائفيين وحكايات الاجداد ما عادت تستهوي الاحفاد، وامهات اليوم ما عدن يرضعن اطفالهن من حليب يغذي الحنين في قلوب الابناء. اما الهتافات التي كنا نصدح بها تأييدا للثورات والقضايا الوطنية والانسانية تحولت إلى تأليه للزعيم السياسي والطائفي الذي يدمر البلاد ويقضي على العباد، محتفظا بكرسيه وتكديس امواله وبسط نفوذه وهيمنته.

كنا نستغرب كيف احرق نيرون روما والمجد الروماني ليتلذذ وهو يدخن سيغاره وبيننا الف نيرون يحرقون البلاد ويقهرون العباد وهم منتشون .

ما العمل امام هذا الواقع المأزوم والمشؤوم؟ وإلى أين نتجه بعدما فقد الأمل؟ وما نحن بالمستقبل فاعلون؟ بل إلى اين المصير وكيف نؤسس للمئوية الثانية بهذا البلد الصغير بحجمه والكبير بهمومه ومآسيه والمهم في موقعه الجغرافي والسياسي والامني؟ وكيف يتم التأسيس لبناء مجتمع لا نطلبه فاضلا بل ربما نقبل به عادياً جدا.

وكيف نهيئ للأجيال ان تحيا حياة نتمناها كريمة ونقبلها بسيطة إنما آمنة؟

نتمنى أن تحكمنا قوانين حقوق الانسان ونرضى ان نعيش كباقي الناس ولو لفترة نؤسس فيها لحياة افضل نواكب عصر التقدم كي لا نبقى نعيش الحروب الاهلية والفتن الطائفية والمذهبية والعشائرية منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الواحد والعشرين، أي من حرب ١٨٤٥-١٨٦٠ وحتى مجزرة الطيونة في الرابع عشر تشرين اول ٢٠٢١ مرورا بمآسي نظام المتصرفية والحربين العالميتين وعبوراً إلى الحرب الأهلية عام

١٩٥٨ لتلحقها حرب الخمسة عشر عام بدأ من ١٩٧٥، حروب دفع ثمنها الرعايا البسطاء وقبض ثمنها القادة والزعماء ولكن لا يبقى السلاح المتفجر والمتفلت بأيدي الناس الذين يعيشون شريعة الغاب لأنه ربما في لبنان لا ينوجد مواطنون حيث لا مواطنة ولا حس وطني وهيهات ان يكون لنا وطن بينما في كل مكان من العالم يكون كل مواطن خفير. ولكي لا تزيد وتتصاعد نسبة الفقر فتزداد السرقات والجرائم حيث ان الجوع كافر، ولكي لا يتحول اللبنانيون المقيمون إلى أقلية بين اكثرية من النازحين السوريين واللاجئين الفلسطينيين في وقت سيحمل الجميع الجنسية اللبنانية مع بطاقة هوية.

وحتى لا يتم التطبيع مع العدو الاسرائيلي الذي سرق مياهنا ويسرق نفطنا وغازنا ويطرح مع الوسيط الاميركي الشراكة في انتاج خيرات المساحة المتنازع عليها والتي هي حق كامل للبنان، وبالتالي المشاركة والشراكة في الكتاب المدرسي وكتاب التاريخ بالاخص وصولا إلى ما يسمى بالديانة الابراهيمية وإعادة نسخ القرآن والإنجيل على النهج التلموذي والتوراتي وتعميم مفاهيم حاخامات صهيون بعد نسف الثقافة والتراث العربي.

يومها ستتحول المدن والقرى إلى غابات وصحارى مقفرة، وبيوت تلفها العتمة القاتمة وأملاً بيوم أفضل آمن ومشرق لا بد من إعداد خطة مستقبلية لبناء جيل جديد قادر على وضع أسس علمية ومنطقية سليمة ومستقبلية لقيام مؤسسات ترتكز عليها دعائم بناء وطن ومقومات قيام دولة. ولكي نهيئ لولادة هذا الجيل وإتاحة الفرص لتكوينه كعلامة فارقة في مجتمع يعاني من الإنهيار الإقتصادي والمالي والاجتماعي بل والصحي حتى التربوي لإيقاف الارتطام الكبير كي لا يسقط الهيكل على رؤوس الجميع، وكيف السبيل لذلك ما دامت المنظومة القابضة على زمام امور البلاد والعباد والتي لم ترتوٍ بعد من عرق الكادحين والفقراء والمحرومين الذين تزايد عددهم بما يفوق الثمانين بالمئة من اللبنانيين وبالتالي كيف التخلص من هذه المنظومة الفاسدة وشرورها حيث سقطت امامها كل وسائل التغيير الديمقراطية والتحركات الشعبية كذلك الانتفاضات وكافة الوسائل المتاحة، حتى لم يبق بقعة ضوء واحدة ترشد اللبناني إلى طريق الخلاص والامان، ولكي لا تتوقف نهائيا الادارات الرسمية عن القيام بمهامها وتعثر خدمة الناس وانجاز معاملاتهم الضرورية وتتوقف عجلة

الخدمات العامة، وحتى تبقى مؤسسات امنية وعامودها الفقري الجيش اللبناني ليعطي بعض الامان والامل بالطمأنينة التي كانت بعيدة المنال، وبعدما عمت العتمة ويكاد ينعدم التنقل بالمركبات نتيجة غلاء المحروقات وينعدم وصول الموظفين الى وظائفهم والعمال الى مراكز عملهم والتلامذة الى مدارسهم والطلاب الى جامعاتهم شبه المغلقة ايضا نتيجة الاضرابات كسبب متمم، هذا اذا بقي للمستشفيات قدرة على ابقاء ابوابها شبه مفتوحة، بعد ان اقفلت الكثير من اقسامها بعد فقدان اللوازم الطبية وأدوية الامراض المزمنة والمستعصية ناهيك عن عدم القدرة على شرائها وشراء المواد الغذائية في وقت يكاد فعل الخير ينتفي حتى من قبل المؤسسات التي تسمي نفسها خيرية ودينية، وانعدمت الرحمة من افئدة من يدعون حرصهم على مساعدة ومواساة المحتاجين، وهذا يسري على زعماء الطوائف وشركائهم الذين هم اصل البلاء. وحتى لا نصل ليوم نفقد فيه الماء بعد الكهرباء، ويموت الكثيرون جوعا من قلة الغذاء او يقضون من انعدام الدواء، وفقدان المستشفيات للمرضات والأطباء، وحتى لا تتحول الصروح التربوية من جامعات ومدارس الى اطلال فاقدة للروح التي تتمثل بالطلاب والاساتذة، وهي كادت ان تكون كذلك خلال العامين الماضيين بسبب وباء كورونا والازمة الاقتصادية، كذلك فإن فقدان التربية والتعليم بعد فقدان الثقافة والاخلاق والضمير والانسنة يعني العيش بظل شريعة الغاب ولربما كثير من فصائل الحيوانات تتقدم في كثير من الامور على كثير من اللبنانيين في هذا الزمن الرديء.

الأكيد ان وباء كورونا الذي اربك العالم بأكمله، كما كل الاوبئة، لم يعد يخيف اللبنانيين لأن وباء الحكام وكافة السلطات القابضة عليهم اضحت اشد فتكاً حتى من وباء الكوليرا، كما لم يعد يخيفهم العدو الخارجي سواء كان اسرائيليا او داعشيا وتكفيريا لأن العداء الداخلي تجاوز بفتكه كل المقاييس، لأن اللبنانيين او قسما كبيرا منهم استطاعوا ان يواجهوا العدو الصهيوني ويردعوه وينتصروا على العدو التكفيري الداعشي ولكنهم لم يستطيعوا حتى الان الانتصار على الطائفية والمذهبية البغيضة التي تشكل السلاح الامضى للطبقة السياسية الحاكمة. ولم يعد تلوث مياه الانهار والليطاني اكبرها ومأساة بحيرة القرعون، ولا النفايات المتراكمة في الشوارع تخيفهم ولم تعد من هموم اللبنانيين الاساسية، حتى اموالهم المنهوبة

والتي ابتلعتها المصارف واصحابها المحصنين من اهل السلطة وشركائهم على درب الفساد الكبير وطريق الجلجلة اللا متناهية، حيث بات همهم معرفة مستقبلهم في بلاد حتى القديسين المنتشرين على مرتفعات الجبال لم يستطيعوا بأدعيتهم ومناجاتهم للرب أن يبعدوا أذى انياب الذئاب الكاسرة عن نهش لحوم الحملان الوديعة، بالرغم من التضرع المستمر وانارة الشموع وحتى السير بالمئات حفاة قصدا للرحمة والشفاعة. من سيدة حاريصا إلى سيدة النجاة مرورا بسيدة اهدن إلى سيدة المنطرة في مغدوشة ومن السيدة خولة في بعلبك إلى الامام الاوزاعي في بيروت وصولا إلى خلوات البياضة وكل المزارات من كل المذاهب لم تستطع ان تبعد شرور الحكام عن المحكومين بالرغم من كل الرجاء والدعاء لأن الحكمة الإلهية رافضة لهذه العلاقة المنبوذة بين السلطات المحلية السياسية والسلطات الدينية، لأن الرعاية الإلهية ترفض الزواج الحرام القائم على المصالح المشتركة والتنفيعات الخاصة وتقاسم الحصص على حساب من يدعي الطرفان حرصهما عليه والحقيقة ان قرار هؤلاء ونهجهم لم يكن يوما نابعا من مصلحة من يدعون تمثيلهم بل تأتيهم التعليمات من الخارج الذي يدعمهم ومن السفارات التي تمثل تلك الدول في لبنان.

وكأننا لا زلنا نعيش في عهد المتصرفية منتصف ستينات القرن التاسع عشر أيام حكم الدولة العثمانية مع الدول السبع الراعية للطوائف في جبل لبنان.

السنة الاولى من المئوية الثانية هدمت كل ما قامت عليه المئوية الاولى للكيان اللبناني الذي تأسس له منذ حوالي القرنين من الزمن لكي لا يكون يوما من الايام وطنا حقيقيا كباقي الاوطان وليكون ساكنوه رعايا طوائف ومذاهب وتجمعات عشائرية وقبلية متنازعة تستقوي بالحملات الخارجية على بعضها البعض، لا يجمعها حس وطني ولا يعرفون المواطنة ولا الوطنية الحقة، وبالتالي لا يمكن لهم ان يكونوا مواطنين حتى وإن سموا بذلك.

تحكمهم سلطات اقطاعية ساسية ودينية مشتركة دون التمكن من إقامة دولة قائمة على دعائم المؤسسات وما ينتج عنها من قوانين وأنظمة ترعى شؤون المجتمع.

ونفخوا فيهم روح العظمة بأن أصلهم يعود لأجدادهم الفينيقين الذين عبروا البحار بسفنهم المصنوعة من خشب ارز الرب وصولا إلى اوروبا

وعلموا الاخرين الحرف والتجارة والصناعة... وعبر قرون من الزمن لم يتعلموا من الحملات الخارجية المتتالية سواء الصليبية والمغولية و التتارية والعثمانية كذلك حملة ابراهيم باشا المرسل من قبل والده محمد علي حاكم مصر لبسط نفوذه على لبنان كذلك مرحلة حكم المتصرفية وما سبقها ايام حكم المعنيين وبعدهم الشهابيين الى أيام الانتداب الفرنسي بعد هزيمة المانيا ودول المحور في الحرب العالمية الأولى كذلك هزيمة النازية في الحرب العالمية الثانية لم يتعلم اللبنانيون دروسًا نافعة منهم لا يزالون يستقوون بالخارج على بعضهم البعض ففي لبنان اليوم اميركيون وفرنسيون وسعوديون وايرانيون وحتى اسرائيليون اكثر من اللبنانيين الصادقين بلبنانيتهم، وهل هكذا تبنى الاوطان؟ وهل هكذا تبنى المجتمعات؟

خمسة عشر شهراً مضت على جريمة العصر انفجار او تفجير مرفأ بيروت ومع كل المعاناة لم يسلك القضاء طريقه في التحقيق، ومدة مثلها مضت على المبادرة الفرنسية التي وافق عليها كل اهل السلطة ولم ينفذ منها امر واحد، مدة مثيلة لها مضى على سرقة اموال المودعين وحجبت ما بقي منها في المصارف ولم تعد الاموال المنهوبة ولم تسترجع الاموال المسروقة، ولم يبدأ التدقيق الجنائي ولا محاسبة الفاسدين ولا حتى تحديد اسمائهم وهوياتهم لأن الفاسد بنظر رعيته بطل او قديس. والزعيم بنظر رعاياه دائما على حق وانتفت مقولة الوطن دائما على حق. وبالرغم من كل هذا الواقع المأساوي واللوحة القاتمة السواد لا شك أن هناك بارقة أمل تلوح في الأفق عبر بقع ضوئية تتجلى بحتمية التاريخ وقدرية التطور بالرغم من لعبة الأمم لأنه لو كان للباطل الف جولة فإن الحق تكفيه جولة تشكل الخطوة الأولى من رحلة الألف ميل، الأمل هذا يتجلى بجيل جديد وقلة واعية مؤمنة بقضيتها عارفة بحقوقها، واعية لمصالحها، متفانية في نضالها، مدركة لمسارها، عالمة بخططها، قادرة على تنفيذ طروحاتها ومشاريعها، صادقة في تعاطيها مع بعضها، مستقلة بمواقفها، متعالية على جراحاتها، متناغمة مع متطلباتها، تقرأ تجارب الثورات بعلمية وموضوعية ومسار حركات التغير، وسلوك القادة الكبار، والأهم التربية الوطنية منذ الطفولة حتى الرجولة، وكتابة التاريخ الصحيح المؤدي إلى التآلف والتلاحم، فلا تناقض بين ما دعت إليه الأديان من محبة

وتسامح وعدل ورحمة ومساواة في الحقوق والواجبات وبين ما دعى إليه قادة الثورات منهم ماوتسي تونغ وغاندي ولينين وقبلهم الإمام الحسين عليه السلام إلى تشي غيفارا، وعمر المختار، وشارل ديغول، وجمال عبد الناصر، إلى السيد موسى الصدر وكمال جنبلاط وطانيوس شاهين، ومن الثورة الفرنسية إلى الثورة البلشفية والثورة الايرانية إلى الثورة الفلسطينية نستذكرها ونسترشد بها معتقدين بما آمن به الشاعر ابو القاسم الشامي:

إذا الشعب يوما اراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر